مصر فى المجلات البريطانية

رأى مجلة علمية

فى مجلة « العالم اليوم » ، وهى من أكثر المجلات الانجليزية تدقيقا فى أخبارها ، إذ يصدرها المعهد الملكى لدراسة الأمور الدولية فصل (فى عدد مايو) عن بريطانيا ومصر ، ووجهة النظر المصرية فى تعديل المعاهدة . ومما جاء فيه أن مشاكل مصر ناشئة إلى حد كبير عن مركزها الجغرافى الخاص . فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كان التسلط على مصر مفتاحا للسلطة على جميع المساحات التى هى مهد الحضارة الغربية . وفى العصور الحديثة صارت جميع المساحة التى نسميها عادة ، وللسهولة أكثر من التدقيق ، بالشرق الأوسط ، هى أهم مفتاح ستراتيجى ، لما لاحظ نابليون فى سرعة ؛ وصار امتلاكها أو المقدرة على منع الغير من امتلاكها هو وسيلة النصر فى الحروب العالمية .

ولا يوجد فى عصور التاريخ إلا القليل مثل التاريخ المصرى الحديث تراه واضحا وضوحا ظاهرا فى حوادثه . وهو لا يحتاج إلى فن المؤرخين . فسنة ١٧٩٨ ، وهى سنة الغزو الفرنسى ، هى أول سنة فى تاريخ مصر الحديث . وقد جاءت مع جيوش نابليون آراء الثورة الفرنسية وجميع مثل الحضارة الغربية ، وأدّى وجود العلماء الذين أثقل بهم مركز قيادته إلى اكتشاف أقدم مدنيات العالم ، بفضل شامبليون وتابعيه وتعريف الغرب بها . وبفضل مطابع الفرنسيين واحتذاء عاداتهم وتأثير طرقهم ، تأثرت عقول المصريين بطابع الغرب ، وصار للفرنسيين دور هام فى حياة الأمة المصرية . وكانت محاولة الفرنسيين فتح العالم مما فرض على مصر الدور الذى ما زالت تقوم به على أنها مفتاح لتحقيق الكثير من مطامع الدول العظمى ، وظلت مسرحا لمنافساتهم ، وبقيت شديدة الاتصال بالحياة الاوربية فى سياستها وآرائها وآلانها وفنها . واتصلت مصر بعدد كبير من أهل أوربا ، أكثرهم من العناصر غير المرغوب فيها ، وكان ذلك أيضا مما جاء بالبريطانيين

لقد رأت حكومات بريطانية متتابعة أنها مضطرة إلى اعتبار التسلط على شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو الذى تمكن منه الانجليز لأول مرة بانتصار نلسون فى موقعة النيل ، نقطة أساسية فى السياسة ، لا سيما أن للشرق الأوسط أهمية ستراتيجية وله علاقة بمصالح بريطانيا التى تمتد إلى جوانب العالم . وقوى هذا المظهر من السياسة الخارجية البريطانية منذ السنة السبعين من القرن الماضى بعد إنشاء قناة السويس . فملكة مصر ليست كبيرة الأهمية فقط من الوجهة الجغرافية العسكرية العامة ، ولكن بين حدودها ممر يمر فيه الجزء الأكبر من السفن التى تربط المملكة المتحدة بالهند وممتلكات المحيط الهادى والشرق الأقصى . لذلك ظلت بريطانيا نحو مائة وخمسين سنة تلعب دورا هاما فى العلاقات بين مصر وسائر انحاء العالم . ومنذ احتلت الجيوش البريطانية مصر فى سنة ١٨٨٠ صارت مسألة هذه العلاقات على صورة ما أهم

مافى حياة مصر السياسية ، والآن صارت أداة الحكم فى العلاقات بين انجلترا ومصر هى معاهدة التحالف والصداقة التى عقدت بينهما فى سنة ١٩٣٦ .

ثم تكلم الكاتب عن العلاقات بين مصر وانجلترا بعد الاحتلال ، فذكر مركز مصر منذ عهد محمد على ثم الأسباب التى أدت إلى الاحتلال بما هو معروف فى الكتب الانجليزية التى تبحث فى سياسة بريطانيا نحو مصر ، وانتقل إلى الحرب العالمية الأولى وما كان من تقدم الروح الوطنية فى مصر واهتمامها ، لا سيما على اثر المبادئ التى أعلنها الرئيس ولسن ورغبة مصر فى تمثيلها بمؤتمر الصلح وعدم إجابتها إلى تلك الرغبة ، وتأليف الوفد تحت زعامة المغفور له سعد زغلول باشا الذى يعتبر أبا الاستقلال المصرى ، وأثر تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ وعدم رضا الوطنيين عن مركز مصر السياسى الذى أوجده هذا التصريح ثم سوء الحالة الدولية الذى أدى إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وقال إن مساعدة مصر فى الحرب الأخيرة لها نصيب كبير فى الجدل السياسى الحالى ، فالبريطانيون ينتقدون رغبتها فى استرداد جميع ما لها من دين كبير نشأ عن نفقات الحرب البريطانية ، لا سيما إذا نظرنا إلى الموضوع فى ضوء أن مصر لم تعلن الحرب رسميا إلا فى مارس سنة ١٩٤٥ ولكن الواقع أن تعاون مصر فى أثناء الحرب كان كاملا وذا قيمة كبيرة وأنه لا الرأى العام ولا السياسيون أظهروا أى ميل للاستفادة من المأزق الذى كانت فيه بريطانيا . ولو نظرنا إلى ذلك فى ضوء التاريخ العاصف للسنوات العشرين السابقة لوجدنا قصة العلاقات المصرية الانجليزية أثناء الحرب قصة تسترعى النظر .

ثم تكلم عن موقف الحكومة المصرية عند أزمة العلمين ، وانتقل إلى ما تلا الحزب من حوادث داخلية حتى وصل إلى مرحلة المفاوضات الحالية ، وذكر أنها تسير فى جو غير ملائم ؛ فان هيئة وفد المفاوضات التى اختارها رئيس الوزراء المصرى قوية ، ولكن تأثيرها ضعف لرفض الوفد الاشتراك فيها . وقال إن المطلبين اللذين تطالب بهما الوطنية المصرية الآن هما جلاء الجنود البريطانية عن مصر ، والاعتراف « بوحدة وادى النيل » وهو ما يعنى وحدة مصر والسودان . ولقد كان للسودان دور مهم فى الآراء السياسية المصرية على مدى التاريخ ، وهذا طبيعى إذ أنه منبع النيل ، فهو يلعب دوراً حيويا فى حياة مصر أهم من الدور الذى تلعبه مصر فى حياة بريطانيا ومجموعة دول الامبراطورية . ومشكلة مستقبل السودان أكبر وأعقد من أن يبحث فيها الآن . ومن وجهة نظر العواطف المصرية يلاحظ أمران : أولهما أن السودان ولو أنه اسميا تحت حكم ثنائى من انجلترا ومصر فقد ظل فى الواقع تحت إدارة موظفين انجليز وهم يسيرون به الآن إلى درجة متزايدة من الحكم الذاتى ، وثانيهما أن قوة الارغام التى تكون بيد الدولة المستولية على السودان إذا هى أرادت الضغط على مصر هى قوة فى الواقع لا حد لها . على أن هذه القوة لم تستعمل قط ، ومن غير المعقول أن البرلمان البريطانى يوافق على هذا النوع من الضغط الاقتصادى على الحياة المصرية . ولكن الاحتمال موجود ؛ وقد أشار إليه انجليز غير مسئولين فى خطب عامة لهم . على أن الأمر يتعلق بالثقة ، فاذا كانت الثقة متبادلة والتعبير عنها سخيا فليس ثمة سبب يحول دون ضمان مستقبل السودان ، بحيث يزيد نصيب أهله فى السيطرة على مستقبلهم ثم فى الوقت ذاته يجب أن تذهب مخاوف مصر . وربما كان مما يسترعى النظر ويبعث على التفاؤل فى الموقف بأجمعه هو عدم وجود أى نوع من العداء الجنسى أو الوطنى ، وندرة العداء الشخصى .

رأى فى مجلة محافظة

أشارت مجلة «ناشنال رفيو»، وهى المجلة الشهرية التى تنطق بلسان المحافظين، فى عرضها لحوادث الشهر (فى عدد يونيو) إلى المفاوضات المصرية، وتصريح مستر أتلى بمجلس العموم البريطانى فى جلسة ٧ مايو حين أعرب عن نية الحكومة البريطانية فى الجلاء عن مصر. وقال محررها إنه مما لا يصدق أن حكومة تتخذ مثل هذه الخطوة دون أن تستشير غير مجرد أهوائها، ودون أن تسأل المستعمرات المستقلة التى ساعدتنا على الاحتفاظ بالبحر المتوسط، فى الحملة الافريقية العنيفة التى كانت فى سنة ١٩٤٠ — سنة ١٩٤٢. هذا مما لا يصدق حتى من حكومة متقلبة قليلة التجربة مثل الحكومة البريطانية. ولكن هذا ما كان فعلا. ولقد وقف المستر تشرشل الذى يعرف ما هى مصر وما هو الدفاع عنها فى التو وطلب استمرار المناقشة. وقد نوقش الموضوع بأكمله فى جلسة كبيرة الأهمية فى اليوم ذاته؛ إذ كان حزب المحافظين بأكمله يؤيد زعيمه، فان الدفاع عن مصر معناه الدفاع عن قناة السويس، والدفاع عن القناة معناه الدفاع عن الامبراطورية البريطانية فى الشرق، وعن جنوب إفريقية واستراليا ونيوزيلاندة وفى هذه المناقشة صرح مستر أتلى وهو يقتصد فى صدق القول اقتصاداً باعثاً على الأسف أن المستعمرات المستقلة وافقت على هذا الانسحاب.

وفى اليوم التالى اى ٨ مايو خشى أن ينشر مارشال سمطس تكذيباً لذلك، فاعترف بأن المستعمرات المستقلة أخبرت بأن بريطانيا ستتخذ هذه الخطوة الخطيرة جداً، ولكن لم يؤخذ رأيها فى هذه الخطوة. وهذا التقلب المزدوج الذى قام به رئيس الوزارة ليس من المناظر السارة، ولكنه كان ذا فائدة كبيرة؛ فقد كشف عن الواقع وهو أن المستعمرات المستقلة، فيما يسمى بالاستشارات، تخبر فقط بما تنوى الحكومة الامبراطورية عمله، ولكنها لا تستشار فيما يجب أن تكون عليه السياسة الامبراطورية. والواقع أنه لا يوجد أية استشارات أو سياسة فى جميع الأمور المرتبطة بالامبراطورية، أى الأمور التى لها مساس حيوى بالمستعمرات المستقلة، بقدر مساسها ببريطانيا. وقد صرح مستر أتلى فى أحد ارتباكاته أن وزراء المستعمرات لا يطلب إليهم أن يبدوا موافقتهم فى مسألة خاصة بالمملكة المتحدة، فما أغرب هذا القول! إن الدفاع عن الامبراطورية والدفاع عن مصر حيوى للامبراطورية بأسرها.

رأى سياسى محافظ

وكتب اللورد الترنكهام فى هذه المجلة المحافظة مقالا عن «أمة النيل» ابتدأه بوصف ما حدث فى مصر من تطور ويقظة وطنية بفضل سعد زغلول. وقال إن هذه اليقظة ليست بمستغربة بل هى مثال آخر لليقظات الوطنية التى كانت من ظواهر تاريخ العالم فى القرنين الأخيرين. وبينما مسلك الشعب المصرى آخذ فى هذا التطور، إذا بالمركز الجغرافى لمصر لا يزال هاما كما هو بل زاد أهمية؛ فان التقدم الحديث فى الهندسة واكتشاف آبار

البترول والتغلب على الجو ، كل هذه الأمور زادت المثل القديم تحقيقاً ، وهو الذى يقول إن مصر هى المركز الاستراتيجى للعالم. وقد أشار إلى أن الامبراطورية البريطانية صارت مع الجمهورية الأمريكية والاتحاد السوفييتى اكبر الدول شأنا ، ولكنها فى مركز أصعب من مركزى القوتين الأخيرتين ، فهما دولتان أرضيتان كبيرتان تحت حكومة مركزية واحدة تجرى مواصلاتهما داخل حدودهما ، ولا يمكن أن تفصل هذه المواصلات عنهما إلا بغزو كبير . وهما من الوجهة السياسية والاقتصادية والحربية قادرتان على الاكتفاء بنفسيهما ، فى حين أن بريطانيا مؤلفة من أمم متفرقة ذات سيادة ، ومواصلاتها تتوزع على العالم حيث يكون تامين هذه المواصلات البحرية والبرية متوقفا على صداقة بعض الدول الأجنبية ومن أهمها مصر . وسلامة المواصلات الامبراطورية تتوقف على حسن علاقاتها مع جميع أمم الشرق الأوسط . فحسن النية فى جميع تلك المنطقة شرط ضرورى لسلامة استراليا وحريتها ، وكذلك نيوزيلندة وجنوب أفريقية ، وحلقة كبيرة من المستعمرات البريطانيه والأراضى المحمية ، ولبريطانيا نفسها . ولذلك يتوقف الكثير من الأمور على الحكمة السياسية نحو مصر بعد أن تسلطت عليها نزعة الحماسة الوطنية الآن بحيث صار أعقل زعمائها غير قادرين على توجيه هذه النزعة فى سهولة .

وقال إن البحث فى هذه السياسة على أساس القواعد الحربية أو المادية وحدها معناه عدم فهم المشكلة القائمة . هذا ، مع أن مشاكل الامبراطورية نفسها لا يمكن تسويتها على هذا الأساس ، فكيف ببلد غريب عنها . فالوطنية لا تخضع للمادة . والواجب أن تقوم العلاقات على التعاون المتين العملى مع مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط .

وقال إن هذه الاعتبارات يجب ألا تغيب عن الأذهان . ثم أخذ يستعرض العوامل الاستراتجية فى الشرق الأوسط على ضوء أن مصر مفتاح له ، فقال إن المصالح المادية للامبراطورية البريطانية قد نمت نمواً كبيراً منذ موقعة النيل فى أيام نلسون ، وهو نمو لم يكن يحلم به قواده ، فتسلطها وتجارتها على بلاد الشرق أمداها بقوة مالية تغلبت فى آخر الأمر على محاولات نابليون بأجمعها .

وفى هذا القرن خاضت انجلترا غمار الحرب مرتين ، وكان المعتدى هو ألمانيا فى المرتين مع انضمام تركيا إليها فى المرة الأولى وإيطاليا فى المرة الثانية ، ومع ازدياد المصالح زيادة هائلة ، فقد أنشأت المهارة الفرنسية قناة السويس واحتلت بريطانيا مصر بعد بضع سنوات من شرائها لأسهم الخديوى فى القناة ، وأعادت بريطانيا (!) فتح السودان ، واكتشفت آبار الزيت فى العراق وجنوب إيران . ولو أن الشرق الأوسط خرج من يد الأمم المتحده لما تمكنت من الانتصار على إيطاليا ثم ألمانيا ثم اليابان . لذلك كان من حسن الرأى ومن الجرأة السياسية المحمودة أن أرسلت بريطانيا جيشها الوحيد المدرع إلى مصر إلى خريف سنة ١٩٤٠ فى وقت كانت فيه فى خطر الغزو من البحر . ومما يدل دلالة واضحة على أهمية الشرق الأوسط أن تيار الحرب إنما اتخذ وجهته الحاسمة بعد الانتصار البريطانى فى العلمين . أجل ! إن هذه الموقعة لم تكن لتنجى الشرق الأوسط لو سقطت ستالينجراد ، إلا أن الانتصار فى ستالينجراد لم يكن لينجى روسيا لو لم تجعل الجيوش البريطانية من المستحيل الزحف الجنونى على حقول البترول الروسية ، بأن كسرت شوكة هجوم المحور على مصر والقنال .

ثم تكلم عن معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر وإخلاص الجانبين فى تنفيذها مما أدى إلى خروج مصر من الحرب سالمة وغنية وحرة . على أن مظاهر الحرب غيرت من وجه

القاهرة والاسكندرية ، وامتلأت مصر بالجنود والمنشآت العسكرية ، وصارت بلداً محتلا ، مع أن حكومتها قد ساعدت فى ظروف الحرب . ولقد أخذت الوطنية المصرية تنظر إلى هذه الحال بعين القلق . ولقد مضت ثلاث سنوات على معركة العلمين ، وصارت الحرب بعيدة ومع ذلك ظلت صعوباتها قائمة . وكان من الواجب الجلاء عن القاهرة والاسكندرية فى أسرع فرصة بمجرد زوال الظروف المقتضية لبقاء الجنود فيهما ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فهاجت خواطر المصريين .

وقال إن حكومة المحافظين غير مسئولة عن ذلك ؛ لأنه نبه الحكومة الحالية إلى هذا الأمر عند ما كان فى منصبه بمصر (فقد كان وزيردولة فى مصر واسمه سير ادوارد جريج قبل منحه لقب لورد) على أثر انتهاء الحرب اليابانية .

ومع ذلك فقد نقد الكاتب تصريح الحكومة البريطانية بالجلاء ، وقال إنه لا ييسر المفاوضات بل يزيدها صعوبة ؛ إذ يؤيد هذا التصريح الوهم القائل بأنه يمكن ضمان سلامة مصر بغير إقامة منشآت دائمة على القناة . وزعم أن مصر لا تحتمل عبء الدفاع عن نفسها ؛ فان ذلك العبء يخل بتنظيماتها الاقتصادية والاجتماعية . وانتقد القول بأنه يمكن ضمان القناة وماجاورها بالضمانات الدولية ؛ فان الضمانات الدولية تتطلب تبادل الثقة بين الدول الكبرى التى تحتكر وسائل الحرب . ومما له مغزاه أن أكبر قوتين حربيتين مستقلتين بنفسيهما لا تظهران أى ميل للاعتماد على الضمانات الدولية . فروسيا ترفض فكرة السيطرة الدولية على الدانوب ، وتطالب فى إصرار بميناء فى شرق البحر المتوسط ، وبقاعدة حربية فى الدردنيل ، فى حين لا يخطر على بال الولايات المتحدة أن تجعل قناة بناما تحت مسئولية دولية .

وهو يرى أن القوة الجوية والقنبلة الذرية لم تغيرا من أهمية الدفاع المحلى لقناة السويس ، ويؤكد أن أمريكا وروسيا يشاطرانه هذا الرأى فيما يتعلق بالدفاع عن الطرق المائية الهامة لديهما .

وهو يلوم الحكومة البريطانية على تلكئها فى الجلاء عن القاهرة والاسكندرية بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، وقال إن المعاهدات الدفاعية لا تمس حرية الأمم الصغيرة فان الأمم الكبيرة نفسها تحاول عقد مثل هذه المعاهدات .

واختتم مقاله ذاكراً أنه يتقلب مع الوطنيين المصريين ، وأن علاقات مصر مع جميع الأمم يجب أن تكون علاقة الأمة ذات السيادة فى أرضها . ويبدى أسفه على أن السياسة البريطانية لم تظهر ذلك فى وضوح . ومع ذلك يعزو إلى المتطرفين من المصريين عدم فهمهم لمرامى بريطانيا .